التّعليم قيمة اجتماعية في رواية التغريبة الفلسطينيّة للدكتور وليد سيف دراسة تحليلية

الباحث أحمد بعجاوي
طالب دكتوراه في كلية علوم التربية
الدكتور أحمد الخلدي
محاضر في كلية علوم التربية
جامعة محمد الخامس
المغرب

المُلخّص

تهدف هذه الدّراسة إلى الوقوف على جملة من القضايا الاجتماعيّة، وبحث علاقتها بالتعليم؛ لبيان أثر التّعليم وقيمته الاجتماعيّة، ودوره في تغيير معطيات الواقع، وقد بدا أنّ للتعليم أثرًا واضحًا غير مستحفٍ أثره في تغيير حياة الإنسان نحو الأفضل، ومحاربة المعتقدات البالية بحزم وصرامة. وقد اتخذت الدّراسة من المنهج التحليليّ عمادًا لها، إذ استعرضت نصوص الرّواية وناقشتها؛ بغية الوصول إلى استنتاجات تدعم المعنى المراد.

وقد ابتنت الدّراسة من عدة موضوعات تتآلف جميعها وتتآخى؛ لتقدّم تصوّرًا شموليًّا متكاملا، يفصح عن مراد مقصود، غايته الكشف عن أهم المضامين الاجتماعيّة الّتي استطاع التّعليم أن ينبش خباياها، ويكشف خفاياها، وممّا لا لبس فيه أنّ الرّواية عالجت عديدًا من القضايا الاجتماعيّة الّتي يؤثّر فيها التّعليم، ولكنّنا آثرنا في هذه الدّراسة أن نلقي الضوء على أهم تلك القضايا، فلم يكن الهدف من الدّراسة بسط القول في موضوعات شتّى، بل حصره في موضوعات تفي بالغرض دونما إسفاف أو إخلال.

تأسيس وتمهيد:

يحار المرء أحيانًا في فهم معطيات العمل الأدبي الذي أمامه، فإن أسقطه على واقعه الاجتماعي، وجده يعبّر عن ذلكم الواقع أصدق تعبير، وإن اتّخذه وسيلة للولوج إلى مسالك التربية تمّ له ذلك على أتمّ وجه وأكمله، وإن أراد أن يتناوله من جانب سياسيّ أو دينيّ، كان ذلك جائزًا أيضًا.

ومن يقرأ رواية " التغريبة الفلسطينيّة" للدكتور وليد سيف، بجزأيها: أيام البلاد، وحكايا المخيم، يجد كلّ ما سلف صحيحًا، فالرواية تحفل بمعانٍ مختلفة: سياسيّة، واجتماعيّة، ودينيّة، وتربويّة، ولما كان ذلك كذلك، فإنّ المتلقّي سيخرج منها بزادٍ ثقافيّ وفير، وسينهل منها قيمًا تربويّة عميمة الفائدة، سيّما إن كان القارئ يدرك أنّ هدف وليد سيف " إحياء ذاكرة الأجيال العربية عامّة، والفلسطينيّة خاصّة، تجاه القضيّة الفلسطينيّة التي كانت مهدّدة بالطمس، لا سيّما لدى الأجيال الجديدة".[1]، وقد عبّر الدكتور وليد سيف عن هذه الغاية في سيرته الذاتية " الشاهد والمشهود" حيث يقول: " الذاكرة هي ما راهن العدو على انطماسه مع تطاول الزمن والشتات ... ذاكرة الماضي هي التي تحرس حلم العودة ووعد المستقبل، وبالمقابل فإن حلم المستقبل هو الذي يبعث ذاكرة الماضي حية في كل حين".[2]

لقد كان الهدف من كتابة هذه الرواية رصد الواقع الفلسطيني، وإبراز الأحداث السياسية التي رافقته في مرحلة ما قبل النكبة، وصولا إلى نكسة حزيران 1967م، ومع ذلك لم يقصر الراوي روايته على ذكر الأحداث والوقائع، بل أخرجها من عباءة التاريخ إلى عوالم جديدة، تثري وعي القارئ وتشحذ قريحته، مزيلة بذلك أسباب الرتابة والملل.

ومن تلكم العوالم التي ينقلنا إليها الراوي: التعليم، إذ يتبيّن من مطالعة الرواية اهتمام صاحبها بهذه القضيّة، فنراه يفرد للحديث عن التعليم صفحات كثيرة بدءا من صفحات الرواية الأولى، وصولًا إلى نهايتها، وهو يسلّط الضوء على التعليم؛ كونه طوق النجاة الوحيد للفلسطينيّ المقهور، الّذي خسر أرضه ووطنه، فلم يبق له شيء سوى التعليم، الّذي سيكون يومًا سلاحًا بيد صاحبه، يثبت وجوده، وينفي اغترابه.

والتعليم عند وليد سيف يغدو قيمة اجتماعيّة، ترفع شأن صاحبها، وتغيّر حياته من الشقاء إلى الرفاهية، وتوصله المكانة التي يستحقها، فيدخل عوالم جديدة، كان يراها حلمًا، لكنها أصبحت حقيقة، وهذا ما سيتضح معنا جليًّا في ثنايا هذا المقال، سيّما حين نتحدّث عن شخصيّة " عليّ" في الرواية.

بقي أن أشير إلى أنّ هذا المقال، سيميط اللثام عن واقع التعليم في فلسطين زمن الرواية، أي ما قبل النكبة حتى النكسة، وسيرصد قيمة التعليم الاجتماعية، وتأثيراته في واقع الفلسطينيّ في مرحلة اتّسمت بالتوتّر، وعدم الاستقرار.

مفاهيم الدّراسة

أولا: التعليم لغةً: العلم نقيض الجهل، عَلِم، عِلمًا، وعَلِمت الشيء: أعلمه عِلما: عرفته، وعلم بالشيء: شعر، وعلم الأمر وتعلمه: أتقنه.[3]

أمّا التعليم اصطلاحًا: فهو مفهوم يعبّر عن الطريقة التي يكتسب فيها الطفل القيم، والسلوكيات والولاء للوطن، بالإضافة للمعرفة، ويتم التعليم عن طريق المناهج، والأنشطة، والنظام التعليمي ذاته.[4]

ثانيًا: القيم لغةً: القيمة واحدة القيم، وأصله الواو؛ لأنه يقوم مقام الشيء، والقيمة ثمن الشيء بالتقويم، تقول: تقاوموه فيما بينهم، وإذا انقاد الشيء واستمرت طريقته، فقد استقام لوجهه، يُقال: قام فلان على الشيء إذا ثبت عليه، وتمسّك به.[5]

أمّا القيم في الاصطلاح: فهي موجهات لسلوك الأفراد، ضمن ثقافة معينة أو مجتمع معيّن، تُكتسب عبر التنشئة الاجتماعيّة، ويعطيها الأفراد اهتمامًا حاصًّا، وتُشكّل مبادئ تتكامل فيها الأهداف الفرديّة مع الأهداف العامّة للمجتمع، وهي عنصر مشترك في تكوين البناء الاجتماعي والشخصيّة الفرديّة.[6]

ثالثًا: اجتماعيّة لغةً: وهي مأخوذة من الفعل: جَمَعَ: جمع الشيء عن تفرقة، يجمعه جمعًا، وجمّعه وأجمعه فاجتمع، وتجمّع القوم، اجتمعوا أيضًا، والجمع اسم لجماعة الناس، والجمع: المجتمعون، وأجمعت الشيء: جعلته جميعًا.[7]

والاجتماع: منه علم الاجتماع، وهو علم يبحث في نشوء الجماعات الإنسانية، ونموها، وطبيعتها، وقوانينها، ونظمها، والرجل الاجتماعي: كثير المخالطة للناس.[8] ومن هنا نجد المعنى اللغوي يتصّل اتّصالًا وثيقًا بالمعنى الاصطلاحي، فإن كان لغةً يدلّ على التجمّع وعدم الافتراق، فهو في الاصطلاح يدل على المخالطة للآخرين والتجمّع معهم، بعيدًا عن العزلة والانطواء.

رابعًا: التغريبة لغةً: وهي مأخوذة من الفعل: غَرَبَ: أي بعُد، ويُقال: اغرب عنّي: أي تباعد، والتغرّب: البعد، والتغريب: النفي عن البلد، والغُربة والغُرب: النزوح عن الوطن والاغتراب.[9]

أمّا في الاصطلاح: فقد ارتبط المصطلح بما هو غربي، فغدا يستخدم للدلالة على تقليد الأسلوب الغربي (أوروبا الغربية) في بعض أو كل المجالات من حيث الشكل والمضمون، وبالتالي سيادة النموذج الثقافي الغربي على ما عداه من نماذج ثقافية معاصرة،[10] ومن هنا يتّضح جليًّا، أنّ الاغتراب لا يكون بترك البلد فحسب، بل ينطوي على دلالات تتسع لتشمل الاغتراب الفكري، والثقافي، والحضاري.

واقع التعليم في فلسطين زمن الرواية

إذا ما علمنا أنّ الزمن الذي تجري فيه أحداث الرواية يمتد من عشرينيّات القرن العشرين، حتى أواخر الستينات من القرن نفسه، فهذا يعني أنّ الرواية تعاصر الانتداب البريطاني لفلسطين، ومن ثمّ الاحتلال الصهيوني لها، ومن هنا نجد أنّ أحداث الرواية تتمحور حول مواجهة الانتداب والاحتلال، وبالتالي فإنّ الحديث عن التعليم كونه قيمة اجتماعيّة، لا يكون تامًّا دون الحديث عن الآثار السلبيّة التي تركها الانتداب البريطاني، ومن خلفه الاحتلال الصهيوني، على التعليم في فلسطين.

وبنظرة سريعة للتعليم زمن الانتداب، نجد أنّ جهاز الإدارة التعليميّة البريطانيّة في فلسطين، لم يكن يلائم التطور الاجتماعي والثقافي للشعب الفلسطيني؛ لأنه كان مجحفًا وصارمًا، تعوزه المرونة في تفهّم آمال الشعب وتطلّعاته،[11] وقد كان ذلكم الجهاز مسّخرًا لخدمة كلّ ما هو يهوديّ، معاديًا لكل ما هو فلسطينيّ، فلا غرابة والحالة هذه، أن نجد التوتّر سيّد الموقف في المدارس حينها.

وإذا ما تحدّثنا عن المراحل التعليمية زمن الانتداب نجد أنّ المرحلة الابتدائية كانت مدتها سبع سنوات، أمّا المرحلة الثانويّة فمدتها أربع سنوات[12]، أمّا المناهج الدّراسيّة حينها، فقد كانت تهدف إلى خلق عقليّة عن الطلبة تؤمن بفكرة الوجود اليهودي في فلسطين[13]، وقد احتجّ الأهالي والطلبة على تلك المناهج وسياساتها، ولكنّ تلك الاحتجاجات لم تكن لتغيّر الواقع، فقد كانت دائرة المعارف البريطانية تتحكّم بكل شيء، وتشرف على كل شيء يتعلق بالتعليم، بدءا من تجهيز المدارس، مرورا بتفتيش التعليم الحكومي وغير الحكومي، انتهاءً بتعيين المعلمين وعزلهم.[14]

وإذا ما تحدّثنا بلغة الأرقام نجد أنّ النّصيب الأكبر للمتعلّمين زمن الانتداب، كان لليهود على حساب العرب، وفيما يلي إحصائيّة تعود لعامي 1942-1943، توضّح عدد الطلاب اليهود في المدارس، وإحصائية أخرى تعود لعامي 1944-1945، توضّح عدد الطلاب العرب في فلسطين في المدارس الحكومية في المراحل المختلفة:[15]

إحصائية النظام العبري لعدد الطلاب في المدارس بين عامي 1944-1943		
المرحلة	المدرسة	الطلاب (ذكور وإناث)
رياض أطفال	264	10350
الأساسي	242	51088
الثانوي	29	9073

إحصائية تعود لعام 1944-1945 لعدد الطلاب في المدارس الحكومية في المراحل المختلفة			
المرحلة	الذكور	الإناث	المجموع
رياض	6	1837	1843
أساسية دُنيا	50520	12511	63031
أساسية عُليا	498	1181	6141
ثانية	889	97	986

يتضح مما سبق أنّ الإقبال على التعليم من قبل اليهود كان كبيرًا، وأعداد التلاميذ كانت عالية إذا ما قورنت بأعداد التلاميذ العرب؛ ومردّ ذلك إلى قوانين الحكومة البريطانيّة، المنحازة دائمًا لليهودي على حساب الفلسطينيّ.[16]

بقي أن نشير إلى أنّ كلًّا من التعليم العربي واليهودي، كان يقوم على أسس لغويّة، وجنسيّة، وثقافيّة، وأهداف تربويّة تختلف كلّ منهما عن الأخرى[17]، ولما كان الأمر كذلك، فإنّ الصّراعات ستتفاقم، ولن تُطفأ جذوتها، فهذه الأرض لا تتسع لشعبين.

مدخل إلى القيم في الرواية

رواية التغريبة الفلسطينية، التي قُدّمت عام 2004 مسلسلًا، احتوت على قيم وأفكار كثيرة، وقد كان هدفها الأول عرض القضية الفلسطينيّة، وبيان ما حصل للشعب الفلسطينيّ من اعتداءات ومضايقات من سلطات الانتداب البريطاني، والعصابات الصهيونيّة، وقد تطوّر الحدث في الرواية، لتحدّثنا عن الأحداث التي مرّت بها القضيّة، من ثورات الفلسطينيّين ضد الانتداب البريطاني، لا سيّما ثورة 1936، وما انتهت إليه هذه الثورة من أحداث أشعلت الشارع الفلسطينيّ ضد ذلكم الانتداب.

ثمّ بدا واضحًا خفوت هذه الأحداث لتشتعل ثانية أواسط الأربعينيّات، مع اقتراب حرب 1948، ثم عرضت لتلك الحرب، وتابعنا الهزيمة والإخراج من البلاد، والتهجير القسريّ، وما جرى للناس بين حربي 1984و 1967، وأمل الناس بالنصر، وتوقّعهم

العودة، وشوقهم الدائم للبلاد، وفي ظلّ هذا الترقّب تشتعل حرب عام 1967 ليتحول الأمر إلى كابوس جديد، يؤكد معنى الهزيمة، ويبعد الأمل في العودة ثانية إلى البلاد.

وقد احتوت الرواية – وهي تعالج هذه الأحداث– على الكثير من القيم التربويّة الّتي يجدر التوقّف عندها، قبل الولوج إلى الموضوع الرئيس، ومن تلك القيم: الصمود في وجه الانتداب البريطاني، والاحتلال الصهيوني، وتضحية الشعب بالغالي والنفيس؛ من أجل تحقيق الحرية، والعيش بأمان بعيدًا عن صلف المحتل وجبروته، وقد اقتضى ذلكم الأمر أن يتحمّل الناس الجوع والفقر والعوز، دون أن يفكّروا مجرد تفكير في بيع أراضيهم للمحتل وأعوانه.

ومن القيم الّتي احتوتها الرواية قيمة الحب الطاهر العفيف بين حسن وجميلة، ذلكم الحب الّذي أصرّ الوشاة أن يصبغوه بالعيب والحرام، لتقتل جميلة بدافع الشرف، ومن القيم الأخرى على سبيل العرض لا الشرح: طاعة الأم ومكانتها في البيت، أهمية الزواج المبني على الحب مهما اختلفت الفوارق الطبقيّة، الصبر على الفقر وتحمل المشاقّ في سبيل الله والوطن، حرص الفقير على التعليم، لتغيير واقعه الاجتماعي، وهذا ما سيكون مدار قولنا في هذا المقال، حيث سيتم استعراض كثير من القضايا المتعلقة بالتعليم كونه قيمة اجتماعيّة، ومن تلك القضايا الّتي تضمّنتها الرواية:

أولًا: نظام التّعليم في القرية وأسلوب المعلّم:

قبل الولوج إلى الرواية لمعالجة هذه القضيّة، ينبغي القول إنّ مدرسة القرية كانت أشبه بنظام "الكُتّاب" الّذي كان يمثّل مدرسة صغيرة، مكوّنة من غرفة واحدة، ومعلّم ومساعده[18]، وهذه الكتاتيب وُجدت غالبًا في مقامات قبور بعض الصالحين، تفاديًا لدفع أجرة المدرسة[19]، أمّا معلمو الكتاتيب فقد كانت ثقافتهم محدودة وكذلك منزلتهم الاجتماعيّة[20]، وكانت معاملتهم مع الطلبة قاسية إلى حد ما، وإن كنّا لا نعمّم، لكنّ ذلك كان ظاهرًا عند السّواد الأعظم، ومع ذلك فقد خرّجوا أجيالًا متعلّمة، ومنضبطة، ومزوّدة بمنظومة أخلاق متكاملة.

وحين نطالع صفحات " التغريبة الفلسطينيّة" الأولى نجد الحديث عن التّعليم حاضرًا، سيّما عند حديث أسرة أبي أحمد عن تعليم " علي، وحسن"، واستعداد الأسرة لإرسالهما إلى المدرسة حين يبدأ العام الدراسي، وبالفعل " وصل أخيرًا معلّم المدرسة الجديد، الّذي كان أشبه بشيوخ الكتاتيب في هيئته ... ولم يكن اللقاء الأوّل مع المعلّم الجديد مريحًا لأحمد، الّذي صحب إخوته إلى المدرسة في يومها الأول"[21]، ومن الطّبيعي ألّا يرتاح أحمد للمعلّم؛ فشخصيّة أحمد أبعد ما تكون عن المسالمة والمطاوعة، فهو يرفض أن يقول للمعلّم ما يقوله غيره: " لك اللحم، ولنا العظم"، في إشارة واضحة للمعلّم أن يضرب الطّلاب كما يريد، ووقتما يريد.

وإذا كانت شخصيّة أحمد ترفض المسالمة، فأخوه الصّغير " حسن" يشبهه أيضًا، ومن هنا وجدناه يصطدم مع معلّمه منذ الأيام الأولى للعام الدراسي، وما كان من المعلّم إلّا أن " أخذ بأذنيه يفركهما، ويقرصهما بشدّة، ورفع جسمه من أذنيه، ثم أخذ يصفعه بقوّة"، ثم تناول العصا وأخذ يضربه في أماكن متفرّقة من جسده، دون أدنى رحمة"[22]، وهنا لا بدّ أن يتساءل القارئ: كيف للتعليم أن يحقّق غايته في ظلّ هذه الأجواء المشحونة بالعنف؟ وكيف يمكن لطالب صغير أن يتكيّف مع هذه الأجواء المنفّرة، بل كيف له أن يتوافق مع هذا المعلّم الجديد في ظلّ هذه المعاملة القاسية؟ فمن المؤكّد أنه لن يتكيّف، " فالإنسان يتكيّف من أجل التوافق ... ويعتبر التوافق ثمرة التكيّف"[23].

وإذا كان عقاب المعلّم لحسن سيؤدّي إلى عدم تكيّفه مع واقعه الجديد، فإنّ ذلك لن يرضي أخاه أحمد، الّذي داهم المعلّم في منزله وأخذ يضربه ضربًا مبرحًا، وإن كنّا نعترض على ذلك، إلّا أنّه كان الوسيلة الوحيدة الّتي تخفّف من تعنيف المعلّم لأخيه، وبالفعل

منذ ذلك الوقت آثر المعلّم " تجاهله وتجاهل أخيه، وإن تراجعت هيبته أمام التّلاميذ، بعد أن تسامع الجميع بالضّرب الّذي تعرّض له من أحمد"[24].

ويمكننا القول هنا: إنّ المعلّم الكفء والناجح، هو الّذي يحفظ كرامته من الامتهان، فلا يلجأ للعنف إلّا الضعيف، وربّما ثبت يقينًا للجميع أنّ العنف لا يحقّق نتائج طيّبة، بل على العكس من ذلك فهو يسهم في إضعاف شخصية الطّالب، ومن هنا وجب " على البيئة التربويّة التعليميّة أن تقدّم للطّالب الصيانة الشخصيّة اللازمة، وتعدّل من اتجاهه، وتعيد له توازنه، حتى يمكن أن يصبح طالبًا منتجًا"[25]، وإذا كان التربوي يريد أن يحقّق لنفسه قيمة اجتماعيّة، تعلي من شأنه، وترفع من مقامه، فعليه أن يكون عطوفًا رحيمًا مع طلبته، شريطة أن يلتزموا بالنّظام، ويقوموا بواجباتهم خير قيام، فالعمليّة التربويّة تكامليّة، لا يمكن أن تستقيم دون أن تتضافر جهود جميع أركانها من أجل الإسهام في نهضتها واستمراريّتها.

ثانيًا: الإصرار على التعليم لتغيير الواقع

ونحن نتابع أحداث الرواية، نجد أنفسنا أمام أسرة متماسكة، وظروفها معقّدة، فهي لا تملك الجاه، ولا المال، ولا النّسب الّذي تفاخر به، فلم يكن أمام أسرة " أبو أحمد" إلّا أن تركّز على التّعليم، ليكون سبيلًا لتغيير واقعها المأساوي، ولذلك وجدنا " مسعود" ابن أبي أحمد يقول: " لا بدّ من خلق الأسباب لتغيير الحال ومواجهة الظّلم، وأهمّ هذه الأسباب هو العلم والتعلّم لمن لا يملك إرثًا من المال أو عزوة من الرّجال"[26]، نعم لا مناص إذن من إتمام علي وحسن لتعليمهما، مهما كلّف الثّمن، ومهما كانت الظّروف.

وإذا ما علمنا أنّ " الحرمان المادي يُترجم ... بتدنّي الوضع الصحي والمستوى التّعليمي"[27]، فإنّ ذلك ينبغي أن يواجه بالعلم والتعلّم، فالحرمان بإمكانه أن يقضي على الطموح في الأعمّ الأغلب، ولكنّ أسرة " أبو أحمد" ستتّخذ منه سُلّمًا لتحقيق المجد، ولن تقف مكتوفة الأيدي أمام واقعها المرّ، وبالفعل كان للأسرة ما أرادت، فإن حالت الظروف دون انتقال حسن مع أخيه إلى مدرسة المدينة، إلّا أنّ عليًّا أتمّ دراسته " في أعلى المدارس في البلاد: المدرسة العربيّة في القدس، الّتي كانت وأختها الرشيديّة لا تستقبلان إلّا النخبة الأكثر تفوّقًا في فلسطين، وقد أثبت عليٌّ بتفوّقه أنّه جدير بذلك"[28].

ولسوف نرى لاحقًا أنّ التّعليم أتى أُكُله، سيّما حين أصبح عليٌّ مدرّسًا في قريته، ومن ثمّ معلّمًا في مدينة حيفا، ولا شكّ في أنّ ذلك كان مدعاة فخر للأسرة، الّتي تغيّر واقعها منذ ذلك الحين، إذ رافق تفوّق عليّ، بروز نجم أخيه الأكبر " أحمد" الّذي غدا قائدًا في الثّورة، يأمر وينهى، ويحظى باحترام الجميع، وقد كان عليٌّ يحبّ ذلك الأخّ حبًّا عظيمًا، وهذا ما كتبه في مذكّراته، حيث يقول: " فلولاه لما بلغت ما بلغت من العلم، والمركز الأكاديميّ الّذي أتمتّع به الآن في الولايات المتحدّة".[29]

إذن فقد تغيّر حال الأسرة بالعِلم والسّلاح، وغدا أبو أحمد يجلس مع كبار القوم في القرية، وتخلّص من القهر والكبت الّذي كان يعانيه من النّبذ والإقصاء المتعمّد من المختار وأبي عايد، أجل لن يعود بعد اليوم ضعيفًا، ولن يكون ممتهنًا، فالعِلم أعلى من مكانته وحقّق له مكانة اجتماعيّة مرموقة، والثورة الّتي يقودها أحمد في وجه المحتل الصهيونيّ، توّسعت لتغدو ثورة عارمة، تغيّر الواقع الاجتماعيّ في المجتمع الفلسطيني، وتعيد ترتيب المقامات من جديد، فلا اعتبار لنسب أو مال، فمعيار التفاضل هو الجهاد والتضحية في سبيل الله والوطن.

ثالثًا: التّعليم يحارب الفقر

الفقر مشكلة قديمة حديثة، لا يكاد يخلو منها أي شعب من الشعوب، ولا أيّ مجتمع من المجتمعات، ويوصف الفقر بأنه تجسيد لعدم القدرة على تحقيق مستوى معين من المعيشة الماديّة، يمثّل الحدّ الأدنى أو المقبول في مجتمع ما من المجتمعات، وبالتالي تنجم عنه آثارا سلبية، تتمثّل بعدم القدرة على تأمين الغذاء، أو العلاج، أو المسكن المناسب.[30]

ولما كان الفقر مؤرقًا للدول، كان لا بد من البحث عن حلول لهذا الداء، فقام الباحثون والخبراء بالبحث عن طرق ناجعة للتخفيف من آثاره، فوجدوا أنّ " التّعليم هو أحد العوامل المحوريّة في الحد من الفقر"[31]، وانطلاقًا من هذا نجد أنّ التّعليم يسهم بشكل رئيس وأساسيّ في معالجة الفقر، فلا غرابة والحالة هذه أن نجد البيئات الفقيرة هي الأكثر اهتمامًا بالتعليم؛ كونه وسيلة لتحقيق قيم ماديّة واجتماعيّة.

وحتّى تتحقّق نتائج التّعليم المرجوّة، لا بدّ للمتعلّم الفقير أن يثابر، ويتحمّل المشاقّ، ويصبر في سبيل الوصول إلى غايته، وهذا ما أشار إليه الدكتور وليد سيف في روايته، فهو حين يتحدّث عن نظام التعليم في مدرسة القرية، يتطرّق لجِدّ " حسن"، وحرصه على إتمام واجباته على ضوء السّراج" القنديل"، يقول وليد سيف: " عكف حسن على المذاكرة والحفظ على ضوء السّراج، حتّى تدخّلت أمّه بأنّه قد حان الوقت لإطفاء السّراج، ونوم الجميع".[32]

ولما اعترض حسن بأنّه لم ينته بعد من إتمام الحفظ، ذكّرته أمّه بأنّ السّراج لا يعمل بغير " الكاز"، وأنّ قنينة " الكاز" توشك أن تنفد، وأبوه لا يملك من المال ما يكفي لتأمين حاجتهم من الكاز، وهذا يعني أنّ على ذلك الصّبي أن يمتثل لأمر أمّه، ويذهب للنوم، عاقدًا العزم أن يستيقظ مع أذان الفجر، لإتمام ما بقي من واجباته، وهذا ما حدث بالفعل، حيث أتمّ ما بقي عليه من واجبات فجرًا.

ولم تقف حدود المشكلة عند ضوء القنديل فحسب، بل كانت الأسرة عاجزة عن توفير الدفاتر المطلوبة لابنيها، فحين طلب المعلّم من الطّلبة إحضار مجموعة من الدفاتر للمواد المختلفة، لم تجد الأسرة ما تشتري به تلك الدّفاتر، وما كان من " خضرة": البنت الوحيدة بين إخوتها، إلّا أن جمعت " بضع بيضات مما بقي عندهم، ووضعتها في صرّة كي يذهب بها أحد إخوتها، إلى دكّان أبي العبد، فيبادل بهما الدّفاتر المطلوبة".[33]

ولم يقف الأمر عند مشكلة تأمين الدّفاتر أيضًا، بل كان " حسن" و " عليّ" لا يجدان لباسًا مناسبًا، وهذا ما انتبه إليه المعلّم في أول أيّام العام الدّراسي، فحين يمّم وجهه صوب حسن " أخذ يتفحّص ثوبه الرّث الممزّق، ونعليه المثقوبتين، اللّتين تظهر من مقدمتهما بعض أصابعه"[34]، والحقّ أن ذلك المعلّم لم يكن يمتلك حسًّا من الشفقة أو الرّحمة، فبدلًا من أن يتعاطف مع ظروف تلميذه الصّعبة، فإنّه ازدراه واحتقره.

وإذا كان توفير الملابس والدّفاتر مرهقًا إلى هذا الحدّ، فما الّذي يجعل أسرة بسيطة كهذه الأسرة تتحمّل مشاقّ الإنفاق على تعليم ابنين اثنين؟، وإن تمّ المراد ونجح الابنان في إتمام صفوفهما الابتدائيّة في القرية، فكيف بإمكان الأسرة أن تنفق عليهما في مدارس المدينة؟ كانت هذه الأسئلة كثيرًا ما تُدار في البيت، وكان أبو أحمد يميل إلى ترك ابنيه الدّراسة، والعمل في الأرض، إلّا أنّ رأي أم أحمد أن يُتمّ ابنيها دراستهما مهما كلّف الثمن، وهذا الرأي تبنّاه الابن الأكبر " أحمد"، إذ رأى أنّ التّعليم هو أملهم الوحيد في التخلّص من حياة الفقر والشّقاء.

ولا شكّ أنّ الجدل بين الأب والأم حول تعليم الابنين، كان يتمّ على مسمعهما، فأدركا بحسهما الطّفوليّ أنّهما يرهقان الأسرة، ويزيدان من أعبائها " فاقترحا من جديد أن يتركا الدّراسة ويعينا الأسرة في العمل"[35]، لكن اقتراحهما جوبه بالرّفض المطلق من

أخيهما الأكبر أحمد، وكذلك من الأمّ الّتي قالت بالدّارجة الفلسطينيّة: " اوعى عمرك تقول الخراف، أنت وأخوك حسن بدكم تتعلموا، وفي يوم من الأيام بدكم تصيروا أساتذة وأفندية"[36]، تقصد أنّها لا تريد أن تسمع أيّة كلمة من ابنيها عن ترك الدّراسة، فلا بدّ من إتمام التّعليم، والحصول على المكانة الّتي تليق بهما.

ومهما كانت نتيجة ذلكم الجدل وتلكم النّقاشات، فإنّ الأمر قد حُسم أخيرًا، فبعد أن أنهى حسن وعليّ دراستهما الابتدائيّة في مدرسة القرية، توجّه أحوهما أحمد إلى " عكّا " لتسجليهما في مدرسة المدينة هناك، وبعد أن قدّم الأوراق المطلوبة لمدير المدرسة، " نظر المدير في الأوراق، ثمّ رفع رأسه، وقال إنه لا يستطيع أن يقبل إلا واحدًا منهما وهو عليّ. ذلك أنّ حسن أكبر بسنة من الحدّ المقرّر"، ورغم محاولات أحمد المستميتة في الدّفاع عن حقّ أخيه في التّعليم، إلّا أنّه لم يستطع تغيير القرار، ومنذ ذلك اليوم كان على حسن أن يذوق مرارة الحرمان، في حين كان على " عليّ" أن يناضل في سبيل تحقيق حلم الأسرة، وعليه أن يتحمّل في سبيل إتمام ذلكم الحلم كلّ العذابات والملمّات.

رابعًا: التّعليم والاغتراب: تيهٌ وضياع ونهوض من جديد

إذا كان الفرد يتميّز بتكيّف فعّال كلّما تقدّم به العمر، كونه أصبح يمتلك أساليب تكيّف فعّالة[37]، فإنّ ذلك لم يكن ليتحقق لعليّ في أيّامه الأولى في مدرسة عكّا، حيث تضاعف شعوره بالوحشة هناك " ففي القرية لم تكن رثاثة ثيابه الرّيفيّة تستدعي تنبّه الكثيرين إلّا من القلّة الّتي تملك أن تعيّره بفقره"[38]، أمّا هنا في عكا فالحال مختلف تمامًا، فهو تحت مجهر الأنظار طوال الوقت، ولسوف تبقى ملابسه الرّثة تدلّ على شدّة فقره، فحتّى الطلبة القادمون من الريف "كانت هيئاتهم تدلّ على مستوى الأسَر الّتي جاؤوا منها، ومنهم من آثر ارتداء البنطال والقميص على طريقة أهل المدينة، فلا تكشف أصوله الريفيّة غير لهجته"[39]، أمّا عليّ فعليه أن يكون مستعدّا منذ أيّامه الدّراسيّة الأولى لمجابهة مجتمع مختلف تمامًا عن مجتمع القرية، وعليه أن يكون مكتفيًا بالكفاف ليواصل تعليمه.

وواضح أنّ عليًّا لم يستطع التكيّف بدايةً، فالتحوّلات في حياة أي طالب طفلًا كان أو مراهقًا، كالانتقال من مدرسة إلى أخرى أو تغيير مكان السّكن، تؤدّي لصعوبات تكيّف عن الطلبة، ويزداد الأمر تعقيدًا إذا ما رافق تلك التحوّلات أزمات أسريّة تنتقل آثارها للمدرسة[40]، وكلّ هذه الظّروف كانت محيطة بعليّ مما شكّل عنده خوفًا من القادم، وجعله ينزوي بادئ الأمر، فلم نره يجيب عن أسئلة المعلّم الصعبة، وإن كان ينطقها في سِرّه، ولم يكن يمنعه غير الخجل الناتج عن أزماته الدّاخليّة.

والحقّ أنّ أزماته الداخليّة لم تكن وليدة اللحظة بل هي نتيجة ظروف أسرته الصعبة، "فالأزمات الأسرية تنتقل آثارها إلى المدرسة"[41]، ومما لا لبس فيه أنّ تلك الأزمات تضع الطّالب في مواقف لم يسبق له أن استعدّ لها، مما يجعله عرضة لمضاعفات انفعالية وجسدية، تؤذي صحته النفسية[42]، وهذا ما حدث مع عليّ في مدرسة المدينة، إذ أصبح يعاني من اغتراب روحيّ وفكريّ وقل —إن شئت– نفسيًّا، أضف إلى ذلك أنه لم يكن يشعر بالرّاحة في مكان سكنه مع زميليه " حمدان" ابن أبي عايد، وعارف " ابن المختار" فكثيرًا ما كانا يعنّفانه، ويزدريانه، ويعيّرانه بأصله ونسبه، بل وصل الأمر بهما أن يجبراه على حلّ واجباتهما، وتمزيق دفاتره حين يخرج من الغرفة لقضاء حاجة.

ولم تكن مضايقاتهما له بمنأى عن مرافقة ذلكم الواقع لظروف صحيّة مزرية، إذ كانا لا يعتنيان بالنّظافة أو الترتيب، فكان عليٌّ " يشعر بالاختناق في تلك الفوضى، ولا يحسن الدّراسة أو حتى النّوم فيها، فيجد نفسه مضطرًّا لتولّي مهمّة الترتيب والتنظيف

وشطف الغرفة ومسحها وهو يشعر بالقهر"[43]، ولم يكن عليّ لينقل ما يحدث معه في عكّا إلى أهله في القرية، فقد كان شديد الصبر والتّحمل، فكأنّي به يمتثل قول أبي الطّيب المتنبّي:

إذا غامرتَ في شَرَفٍ مرومِ فلا تقنعْ بما دونَ النّجومِ

فطَعمُ الموتِ في أمرٍ حقيرٍ كطعمِ الموتِ في أمرٍ عظيمِ [44]

نعم كان عليه أن يغامر في سبيل العلم، ويصبر حتى يبرز نجمه في المدرسة، فما هي إلّا أيّام، ويبدأ عليّ بالتأقلم مع واقعه الجديد، وأخذ يركّز في دراسته جيّدا، وراح يتخلّص من خجله شيئًا فشيئًا، فظهر نبوغه في درس الرّياضيات أولًا، حيث قام بحلّ مسألة استعصت على جميع الطلبة، وحين أمسك المعلّم بدفتره " تغيّر وجهه من تعبير الاستهزاء إلى التّعجب والإعجاب"[45]، ثم أعاد إليه الدفتر، وأثنى عليه ثناءً عظيمًا.

أمّا في درس اللغة العربيّة فقد كانت إجاباته تصيب هدفها بدقّة، وقد " ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه المعلّم فخري"[46]، أعقب ذلك بروز موهبته في الكتابة، إذ كتب موضوعًا عن الحياة في الرّيف، أذهل المعلم والطّلبة، ولسوف يصبح منذ ذلك الحين حديث الأساتذة والطلبة، وحين ينتهي العام الدّراسي لن يكون عليٌّ إلّا الأول على صفّه، " فتطلق الأمّ زغرودة تجاوبها خضرة، ويضجّ البيت بالفرح"[47].

ولم تقف حدود الحلم عند مدرسة عكّا فحسب، فبعد أن أنهى عليّ صفوفه الدّراسيّة جمعاء في مدرسة عكّا، انتقل إلى الكليّة العربيّة في القدس، وتخرّج فيها حاصلًا على المركز الأوّل في دفعته، وحين عاد إلى قريته حاملًا شهادته " امتلأ بيت الشيخ يونس بغناء المهنئات والزغاريد، بينما امتلأت الساحة أمام البيت بالمهنئين ... كان ذلك يومًا من أيام أسرة الشيخ يونس، بل القرية كلّها، فهذا أوّل فتى يتخرّج من الكليّة العربيّة، ويحصل كذلك على المركز الأول في دفعته، علي صالح الشيخ يونس، مفخرة أسرته ومفخرة القرية".[48]

لقد عاد عليّ إلى قريته معلّما، ولم يلبث طويلًا حتى انتقل للعمل في مدارس حيفا، وبعد النّكبة والتهجير، واصل مهمّته معلّما في مدارس وكالة الغوث " الأونروا"، ولكنّ ذلك لم يطل أيضًا، إذ حصل على منحة لدراسة البكالوريوس في الجامعة الأمريكيّة في بيروت، ومن هناك إلى " نيوجرسي" إذ دبّر له أساتذته " منحة دراسيّة جديدة في جامعة برنستون في نيوجرسي في الولايات المتحدة الأمريكيّة، لإكمال دراسته العليا حتّى درجة الدكتوراه"[49]، ليعود لاحقًا أستاذًا جامعيّا في الجامعة الأمريكيّة في بيروت.

الآن تستطيع الأسرة أن تتنفّس الصّعداء، الآن يستطيع أخوه أحمد أن يتلفّت في الأهل بعينين تفيضان فخرًا واعتزازًا، " ولسان حاله: ألم أكن مصيبا حين أصررت أن يكمل عليّ تعليمه بعد مدرسة القرية، على الرّغم من معارضة الأب – رحمه الله – وقلة الحال؟ أين الآن شيخ الكُتّاب الّذي سخر من منظره ومنظر أخيه حسن الرّث؟"[50]، نعم كلّ تلك الأسئلة مباحة ومشروعة، فالعِلم أعلى من شأنهم جميعًا، وغيّر من مكانتهم الاجتماعيّة، فغدت الأسرة مصدر فخر لسكّان المخيم والبلد جميعًا.

خامسًا: التّعليم يلغي الفوارق الاجتماعيّة

لا شكّ أنّ المجتمعات عانت وما زالت تعاني من مشكلة الفوارق الاجتماعيّة بين الناس داخل المجتمع الواحد على اعتبار اللون أو الدّين أو الأصل أو اللغة، علمًا بأنّ المساواة في أي مجتمع من المجتمعات تقتضي " أن يكون الأفراد المكوّنين لمجتمع ما متساوين في الحقوق والحريّات والتّكاليف والواجبات، دون تمييز لاعتبارات الجنس أو الأصل أو اللغة"[51]، لكنّ ذلك لم يكن منقذًا لعائلة "

أبو أحمد" من احتقار " أبو عايد" لهم واعتبارهم عائلة دون أصل أو نسب عريق؛ لذا لم يتوان يومًا من الأيام عن إلحاق الأذى الماديّ والمعنويّ بهم، ولم يكن للأسرة سوى الصّبر حتى يأتي فرج الله.

أمّا " أبو عايد" فلم يكن ليردعه رادع عن أذاه، ولم يدر في خلده أنّ البشر " أسرة واحدة انبثقت من أصل واحد ... لا مكان بينهم لتفاضل في أساس الخلقة وابتداء الحياة"[52]، بل كان يرى نفسه الأفضل والأعرق نسبًا، وكان يعينه على ظلمه مختار القرية المنحاز له دائمًا، وعدد غير قليل من الرّجال، ناهيك عن ماله وأملاكه، أمّا عائلة "أبو أحمد" فهم على حدّ وصفه : مقطوعين من شجرة، لا مال ولا رجال، فإذا كانت هذه نظرة الرجل السوداويّة لتلك الأسرة، فما الّذي يمكن أن يخفّف من حدّتها، وكيف يمكن لرجل بهذه العقليّة أن يغيّر من قناعاته وأفكاره؟!

لم يكن ليغيّر من نظرة هذا الرجل لتلكم الأسرة سوى التعليم، فحين أنهى عليٌّ دراسته في القرية، وبدأ يستعدّ للدراسة في عكّا، ضاقت الأسرة ذرعًا بتكاليف الدّراسة، خاصّة تكاليف السّكن، لكنّها فوجئت بموافقة " أبو عايد" أن يسكن ابنه " حمدان" وابن المختار " عارف" مع " عليّ" في غرفة واحدة؛ وبذلك تتوزّع أجر ة السّكن، ولا تتكلّف الأسرة مبالغ كبيرة، والحقّ أنّ " أبا عايد" لم يفعل ذلك تكرّمًا، بل لأنه "كان يعلم تفوّق علي واجتهاده ... كما أنّه كان يقرّ في نفسه لعائلة الشيخ يونس بالاستقامة والتديّن"[53]، ومهما يكن الأمر فإنّ النّبوغ والذّكاء عند عليّ أسقطا ولو بشكل يسير عقدة الكِبر والتّعالي عند أبي عايد، وبذلك يظهر جليًّا أنّ العِلم سيف يجتث كلّ معاني الطبقيّة المقيتة.

وإذا كان التّعليم يقرّب الفقير من الغني في الإقامة والسّكن، فإنّه سيكون وسيلة أيضا للزواج من عائلة ذات حسب ونسب، فحين يذهب عليّ للدراسة في الجامعة الأمريكيّة في بيروت، يلتقي " سلمى" حفيدة السياسيّ الثريّ " أبو أكرم السويدي"، ويحبّ كلٌّ منهما الآخر، وتبقى مهمة إقناع الأهل، ولن تكون المهمّة سهلة على سلمى " فإلى جانب فرق العمر الذي يمكن إغفاله بالمعايير الاجتماعيّة السّائدة في ظروف معيّنة، فهناك الفروق الهائلة في الخلفيّة الاجتماعيّة والأوضاع الماديّة"[54]، ورغم ذلك استطاعت سلمى بذكائها أن تقنع جدّها، والحقيقة أنّ الرّجل كان يحترم العِلم والعلماء، وهو كذلك صديق لشقيق علي القائد "أبو صالح"، الّذي برّأ والد سلمى من تهمة الخيانة بعد مقتله، وعدّه شهيدًا من شهداء الثورة.

ولم يكتفِ الجدّ بالموافقة فحسب، بل تولّى مهمة إقناع الأمّ، " وذكّرها بأنّ العلم يضيّق الفروق، وأنّ معظم الناس من أصول ريفيّة، وهؤلاء الآن يقبلون على التّعليم، ربّما أكثر من غيرهم"[55]، وقد اقتنعت الأمّ بذلكم الزّواج على مضض، وكأنّي بها تغفل عن قوله تعالى: " هو الّذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها"[56]، فالنّفس واحدة هي آدم، وزوجها حواء[57]، والمراد " أنّه خلق كلّ واحد منكم من نفس واحدة، وجعل من جنسها زوجًا يساويه في الإنسانيّة"[58]، أجل إنّها الإنسانيّة ولا شيء سواها، فالمال يفنى، وكذاك الجاه، والنّسب، ثمّ إنّ الإنسان يُقاس بأعماله وإنجازاته، وفي المحصّلة لا شيء يبقى في هذه الحياة سوى الأعمال الطّيبة، والأفعال الخيّرة.

وبعيدًا عن الاستطراد، فإنّ زواج " عليّ" من " سلمى" قد تمّ، في حين لم يُفلح التعليم في إتمام زواج " صلاح" ابن أخ الدكتور " علي" من " نادية" المدنيّة المرهفة، فوالدها " أبو ماهر"، " ليس على مذهب السحابة الورديّة الّتي تطلّ على المخيّم والمدينة دون تمييز"[59]، حتّى أخوها " ماهر" – الصّديق المقرّب لصلاح – حين علم بالأمر لم يتوان عن إمطار صلاح " بسيل من الشّتائم المقذعة"[60]، وهدّده وتوعّده، ولكنّ "صلاح" ظلّ يتحيّن الفرص للقاء " نادية" الّتي أكّدت له أنّها ستبقى مقيمة على حبّه، لكنّ الظروف أقوى منهما، وبذلك أذعن " صلاح" للواقع، وعاد بخفيّ حنين، وهكذا نرى أنّ التّعليم لا يكفي وحده لإلغاء الفوارق الطبقيّة، بل ينبغي أن يرافقه الأدب الجمّ، والتحرّر من النزوات العاطفيّة، وعدم الاستتار خلف عالم وهمي، وهذا ما جاء على لسان

صديق " صلاح": "كفاية إذن تستخدم المخيم أداة للمزايدة الوطنية علينا"[61]، وهذا بالطبع ما يرفضه أبوه المقاوم الثائر " الّذي غفلت عنه الكتب وذاكرة الرواة، ولم تغفل عنه الشظية التي ما زالت تقيم في صدره"[62].

سادسًا: التّعليم يبدّد وهم الخرافة والمعتقدات الخاطئة

بادئ الأمر يمكننا القول إنّ الخرافات والأفكار السطحيّة تنتشر في البيئات الفقيرة، سيّما في ظل تدني نسب مستويات التّعليم[63]، وهذا شيء بدهي، فهناك علاقة طردية بين تدني التعليم وانتشار الأفكار الخاطئة، فغير المتعلم يقنع بما يسمع دون أن يجادل أن يضع الفرضيات والحلول، ولا يقف الأمر عند حدود سماعه فحسب، بل ينقل ما يسمع – وإن كان خاطئا- إلى غيره، فيظهر لدينا مجتمع تسود الأفكار السطحية الخاطئة، وتنتشر فيه الخرافات التي لا أصل لها.

ومع ذلك فإنّ كثيرًا من الدّعاة وطلبة العلم ينبرون لمحاربة تلك الخرافات، إلّا أنّ بعض الجهلة يؤمنون بتلك الخرافات وإن كانت معارضة لديننا الإسلامي[64]، وهذا ما حدث في القرية حين اقترح " عليّ" أن يكون الموقع الذي تُبنى فيه مدرسة القرية هو أرض " وقف أبو نار"، الولي " أبو نار"، فقد اعترض أهل القرية على رأيه، ورأوا أنّ ما يدعوهم إليه شيء من التهجّم على موروثاتهم الدينيّة، وإنْ فعلوا ما يدعوهم إليه ستصيبهم مصيبة جرّاء غضب الوليّ عليهم، وبالطّبع "كان " أبو عايد" أوّل المعترضين وأعلاهم صوتًا: وقف أبو نار؟ كيف يدعوهم للتعدّي على حقوق الوليّ قدّس الله سرّه، وعلا لغط الحاضرين يؤيدون أبا عايد، ويستنكرون رأي عليّ أشدّ الاستنكار".[65]

ومع ذلك فإن عددًا غير قليل من النّاس – خاصّة من الشباب المتعلّم – قد مالوا لرأي عليّ، ومن هنا فقد انقسم النّاس في القرية إلى معسكرين: معسكر علي، ومعسكر "أبو عايد"، وبلغة أخرى، معسكر العلم، ومعسكر الخرافة، ولا شكّ أنّ العلم ينتصر أخيرًا فبعد مدّ وجزر، قرّر عليّ التوجّه إلى الشيخ " إبراهيم العطا" شيخ الطريقة القادريّة في المنطقة، وقد شرح له عليّ الفكرة، وهي " بناء مدرسة في وقف " أبو نار" تكريما له من جهة ولأنها الموقع الأفضل للتلاميذ من جهة أخرى. وبذلك يبقى التلاميذ يذكرونه جيلًا بعد جيل يذكرون اسمه وسيرته كلّما ذكروا المدرسة".[66]

وافق الشّيخ على الفكرة؛ كونها لا تتعارض مع الدّين في شيء، بل على العكس من ذلك، هي تخدم الدّين بالضرورة، فإن أُقيمت المدرسة كما ارتأى عليّ، سيظهر جيلٌ متعلّم يفهم أمور دينه، ويحارب الجهل والخرافة، ونتيجة لذلك فقد توجّه الشيخ إبراهيم العطا صبيحة اليوم التّالي إلى القرية، وهناك وجد عددًا غير قليل من الشباب الّذين يقودهم عليّ، يتجهّزون لبناء المدرسة في وقف " أبو نار"، وهناك أيضًا تجمّع عددٌ غير قليل مع المختار و " أبو عايد"؛ لمنع الشّباب من الاعتداء على أرض الوليّ بحسب زعمهم.

ووسط حالة الترقّب والتوتّر، وصل الشيخ إبراهيم العطا، فطلب من الحاضرين بداية قراءة الفاتحة على روح " أبو نار" وجميع أموات المسلمين، ثم تناول فأسًا وهوى به على جذع شجرة اللوز، فلم يتمالك أبو عايد نفسه، فأخذ يصرخ: " حصة أبو نار!"، فقال له الشيخ: " حصة أبو نار أكبر من هاللوزة ومن هالأرض، الأرض والمدرسة الي رايحة تنبنى فوقها هي حصة أبو نار، وبإذن الله المقام العالي في الجنة"[67]، وقد وقعت كلمات الشيخ هذه في قلوب جميع الحاضرين، ولم يستطع أحد أن يجادل، بل بدأ الجميع بالعمل، حتّى المختار و " أبو عايد" لم يستطيعا إلّا أن يشاركا في العمل، وبذلك قُضي على أسباب الفتنة، وتمّ المراد، وانتصر العِلم على الخُرافة.

سابعًا: التّعليم والحِسّ الوطنيّ

لا لبس في أنّ الهدف من التعليم، هو تزويد المجتمع بأفراد منتجين في شتى الميادين، وتكوين " ثروة بشرية ذات قدرة معرفية ومهارية مبدعة للتنافس في السوق العالمي، فضلا عن كونها ذخيرة حية لترسيخ مقومات المواطنة، التي تحمي الوطن، وتحفظ أمنه واستقراره"[68]، وهذا يعني أنّ المتعلّم مطالب قبل كلّ شيء بالتفكير بطريقة خلّاقة يخدم بها أهله ووطنه، ويستثمر علمه بكلّ ما من شأنه أن يعود بالنفع على الصالح العام، ولا يقصره على مصالح شخصيّة بحتة، هدفها المال والثروة، فالشّعوب لا تتقدّم إلّا إذا تقدّمت المصالح العامّة على الخاصة، وإذا ابتعد الأفراد عن الأنا، فالكل مطالب والحالة هذه أن يبذل في سبيل وطنه ما يستطيع، ولكنّ المتعلّم هو الّذي تُعقد عليه الآمال أن يكون له قصب السبق في ترسيخ مضامين خدمة الوطن، وحمايته.

ومن المسلّمات الّتي لا ينبغي أن يساورها أيّ شكّ من الشكوك، أنّ التعليم بمختلف مؤسساته التربويّة، يُعدّ من الدعائم الأساسية الّتي تحقّق أدوارًا بارزة في تكوين الولاء الوطني، والتمسّك بالقيم والروابط العاطفيّة والنفسيّة[69]، فما قيمة التّعليم إن لم يكن دافعًا لعشق الوطن؟!، بل ما قيمة الحياة كلّها إن لم يستطع الإنسان أن يقدّم شيئا لوطنه الّذي ترعرع فيه وشهد خطواته الأولى، ورافقه في كلّ تفاصيل أيّامه، حلوها ومرّها، فلا غرابة إذن أن نجد الجاحظ يقول: "كانت العرب إذا غزت أو سافرت، حملت معها من تربة بلدها رملًا وعطرًا تستنشقه"[70].

وانطلاقًا من ذلك لم يغفل وليد سيف في روايته عن قيمة الوطن في نفوس أبنائه، بل جعل شخصياته تموت في سبيل الوطن، وجعل الخروج من الوطن معادلًا موضوعيًّا للموت، فالوطن هو الرّوح الّتي لا تفارق صاحبها إلّا بالموت، وبالفعل لقد مات في الفلسطينيّ شيءٌ من ذاته حين غادر وطنه عنوة، وعاش حياة اللجوء، ومع كلّ ذلك بقي الحنين هو الحنين، والأمل هو الأمل، والحلم بالعودة سيبقى محفورًا في ذاكرة الأجيال.

وبالعودة لقيمة الوطن في نفوس أبنائه المتعلّمين، نجد أن " عليّ" يعود إلى قريته معلّمًا لعدة سنوات، قبل انتقاله إلى المدينة، ثم رأيناه أستاذا في مدارس وكالة الغوث، حتّى حينما أصبح أستاذًا جامعيًّا في أعرق الجامعات الأمريكيّة، وجدنا الوفاء عنده لوطنه حاضرًا، ويظهر ذلك في مذكّراته الّتي كتبها عقب وفاة أخيه، فنرى عنده نزعة حنين لتلك القرية الصغيرة الّتي نشأ فيها في شمال فلسطين، والبيت الطيني البسيط الّذي غدا ذكرى موجعة.

إذا كان الأستاذ علي قد فعل كلّ ذلك في سبيل وطنه، فما الّذي فعله " صلاح" ابن أخيه القائد " أبو صالح"، لقد رأينا " صلاح" ينهي دراسة الطّب في القاهرة، ثمّ يعود إلى مخيّمه في طولكرم، ويفتتح عيادته هناك ليخدم أهله وأهل بلده، وقد " وعد نفسه أن يخصّص وقتًا للمرضى الفقراء بلا أجر، هذا أقلّ ما يستطيعه، وما ينبغي عليه"[71]، وهو لو أراد لأصبح طبيبًا يُشار إليه بالبنان في أهمّ المدن الأوروبيّة، لكنها القيم الوطنيّة الاجتماعيّة، تأبى إلّا أن تفرض نفسها، فتفرد للوطن مساحة في قلوب أبنائه لا يشاركه فيها سواه.

وإذا انتقلنا إلى شخصية " رشدي" ابن الشهيد العبد، وابن أخت الأستاذ علي، والقائد " أبو صلاح"، فماذا عساه يفعل بعلمه، لقد وجدناه يذهب إلى السعوديّة معلّمًا، ثمّ يعود بعدها إلى " طولكرم"، ومن ثمّ يحصل على منحة دراسيّة في " باكستان"، ولكنه تأمّل كتاب المنحة " ثمّ جمعه بقبضة وألقى به في سلّة المهملات"[72]، ثمّ تناول سلاح أبيه الشهيد، وسار في طريق المقاومة.

وهكذا يتّضح جليًّا كيف استطاع حبّ الوطن أن ينتصر على الأحلام الفرديّة، وكذلك رأينا كيف أنّ المتعلّم يرى شهادته الكُبرى بتحرير بلاده دون التفات لمستقبل علميّ أنويّ، ومن هنا يغدو التّعليم قيمة وطنيّة عظيمة تعلي قيمة صاحبها اجتماعيًّا ودينيًّا، فالمتعلّم الثائر تخلّده المجتمعات بذكر مآثره، وكذلك يغدو مضرب المثل بتمسّكه بمبادئ دينه، الّذي يلتقي مع حب الوطن.

الهوامش:

[1] سلامة، زياد: وليد سيف ... أديبا ومفكرا، عمان، 2018، ص4

[2] سيف، وليد: الشاهد والمشهود، سيرة ومراجعات فكرية، ط1، الأهليه للنشر والتوزيع، عمان، 2016، ص92

[3] ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور الأفريقي المصري: لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، 1990م، ج12، ص417-418، مادة: علم.

[4] عبد الكافي، إسماعيل: الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية، د.ت، ص113

[5] مادة: قوم ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور الأفريقي المصري: لسان العرب، ج12، ص500- 501

[6] ينظر: عبيدات، أحمد نايف: القيم المؤثرة في السلوك الإداري لمدير المدرسة الثانوية وموقع القيم الإسلامية منها، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، 1982:

[7] ابن منظور، جمال الدين محمد بن منظور الأفريقي المصري: لسان العرب، ج8، ص 53-60، مادة: جمع

[8] أنيس، إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، ط2، دار المعارف، مصر، د.ت، ص156، مادة: جمع

[9] مادة: غرب ابن منظور، جمال الدين محمد بن منظور الأفريقي المصري: لسان العرب، ج1، ص،639

[10]: عبد الكافي، إسماعيل: الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية، ص115:

[11] شحادة، إبراهيم: الخوارزمي للحساب، مطبعة دار الأيتام السورية، د.ت، ص52

[12] شاهين، محمد: تاريخ التعليم في مدينة الخليل، غير منشور، ص19

[13] عمار، أحمد: التعليم في قضاء طولكرم في ظل الانتداب البريطاني (1922-1948)، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ص: س:

[14] العابدي، محمود: معلومات مدنية، ط2، صفد، 1941، ص316

[15] صالح، ياسر: التعليم في مدينة الخليل في ظل الانتداب البريطاني (1920-1948)، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 1999، ص25

[16] ينظر: المرجع السابق، ص25

[17] القطشان، عبد الله: التعليم العربي الحكومي إبان الحكم التركي والانتداب البريطاني (1517-1948)، ط1، دار الكرمل، عمان، 1987، ص37.

[18] النمر، إحسان: تاريخ نابلس والبلقاء، جمعية عمال المطابع التعاونية، نابلس، ج2، ص65

[19] دروزة، محمد عزة: خمسة وتسعون عاما في الحياة، مذكرات وتسجيلات، مطبعة حسن أبو دلو، القدس، 1993، ص136

[20] ينظر: عبده، مجد: الأوضاع التعليمية في نابلس إبان الانتداب البريطاني، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 1998، ص2

[21] سيف، وليد: التغريبة الفلسطينية: أيام البلاد، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2022، ج1، ص16-17

[22] المصدر السابق، ص45

[23] دسوقي، كمال: علم النفس ودراسة التوافق، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1973، ض32-33.

[24] سيف، وليد: التغريبة الفلسطينية: أيام البلاد، ج1، ص55

[25] الصالح، تماني: درجة مظاهر وأسباب السلوك العدواني لدى طلبة المرحلة الأساسية في المدارس الحكومية في محافظات شمال الضفة وطرق علاجها من وجهة نظر المعلمين، رسالة ماجستير، جامعة النجاح، نابلس، 2012، ص21.

[26] سيف، وليد: التغريبة الفلسطينية: أيام البلاد، ج1، ص71

[27] السبيعي، باتل: محاربة الفقر في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز وأثرها في الوقاية من الجريمة، دراسة تأصيلية، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، 2011، ص10.

[28] سيف، وليد: التغريبة الفلسطينية: أيام البلاد، ج1، ص377

[29] المصدر نفسه: ص7

[30] الفارس، عبد الرزاق: الفقر وتوزيع الدخل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2001، ص21

[31] إسماعيل، طلعت: الفقر والتعليم: دراسة تحليلية لمؤشرات العلاقة التبادلية، مجلة كلية التربية بالزقازيق، ع85، ج2، 2014، ص241

[32] سيف، وليد: التغريبة الفلسطينية: أيام البلاد، ج1، ص29

[33] المصدر نفسه: ص37

[34] المصدر السابق: ص43

[35] المصدر نفسه: ص71

[36] المصدر نفسه: ص39

[37] الزعبي، رنا: الأزمات التي يواجهها طلبة المدارس من وجهة نظر المرشدين، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 1999، ص4

[38] سيف، وليد: التغريبة الفلسطينية: أيام البلاد، ج1، ص179

[39] المصدر نفسه: ص179

[40] ينظر: جواد، شوقي: سلوكيات الإنسان: انعكاساتها على إدارة الأعمال، دار الحكمة، بغداد، 1992، ص7

[41] Brammer. Lawrence M. 1980. The Helping Relationship Process And Skills. 3edition. Washington: Prentice-Hall International. P93

[42]Rosemary, Thompson, 1996, Being Prepared For sucide For Sudden Death in school:Strategies to restore Equilibrium. Journal Of Mental Health counseling V.17.N(3),PP. 264-277

[43] سيف، وليد: التغريبة الفلسطينية: أيام البلاد، ج1، ص181

[44] المتنبي، أحمد بن الحسين: ديوان المتنبي، ط1، دار الجيل، بيروت، د.ت، ص232

[45] سيف، وليد: التغريبة الفلسطينية: أيام البلاد، ج1، ص189

[46] المصدر نفسه: ص191

[47] المصدر نفسه: ص231

[48] المصدر السابق: ص425

[49] سيف، وليد: التغريبة الفلسطينية: حكايا المخيم، ج2، ص295

[50] المصدر نفسه: ص296

[51] العوا، محمد سليم: في النظام السياسي للدولة الإسلامية، ط3، دار الشروق، رام الله، 2008، ص223

[52] الغزالي، محمد: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، ط4، دار نهضة مصر، 2005، ص14

[53]سيف، وليد: التغريبة الفلسطينية، ج1، ص167

[54] سيف، وليد: التغريبة الفلسطينية: حكايا المخيم، ج2، ص252

[55] المصدر السابق: ص317

[56] القرآن الكريم: الأعراف: 181

[57] خليل، محمد ممدوح: التمييز العنصري وأحكامه في الفقه الإسلامي: دراسة مقارنة، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، مج 5، ع 34، ص813

[58] المراغي، أحمد: تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1946، ج4، ص175

[59] سيف، وليد: التغريبة الفلسطينية: حكايا المخيم، ج2، ص357

[60] المصدر نفسه: ص358

[61] المصدر نفسه: ص360

[62] المصدر نفسه: ص363

[63] ينظر: سارة، فايز: الفقر في سورية: نحو تحول جذري في معالجة الفقر، دراسات المرحلة الانتقالية، مركز التواصل والأبحاث الاستراتيجية، لندن، 2011، ص27

[64] ينظر: أبو نجا، فائز: أفعال ومعتقدات وخرافات تخالف العقيدة: عرض ونقد، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، مج 64، ع4، 2019، ص128

[65] سيف، وليد: التغريبة الفلسطينية: أيام البلاد، ج1، ص462

[66] المصدر نفسه: ص479

[67] المصدر السابق: ص482

[68] عمار، حامد: الإصلاح المجتمعي، إضاءات ثقافية واقتضاءات تربوية، سلسلة العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الإسراء، القاهرة، ص165

[69] ينظر: الريمي، يوسف: دور التعليم في تنمية الولاء الوطني، مقال الكتروني: almotamr.net

[70] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: الرسائل، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1964، ج2، ص293

[71] سيف، وليد: التغريبة الفلسطينيّة، حكايا المخيم، ج2، ص420

[72] المصدر نفسه: ص468